

مقدمة

لهذا الكتاب قصة : مثل جميع كتبى .. فلهذا الكتاب قصة .

قصة من الواقع .. فلقد آمنت أن التربية الصحيحة القائمة على أساس المنهج الإسلامى ، المستمد من الأصول، المستفيد من غيره دون الإخلال بأصوله ، هى التى تبنى الإنسان العامل ، الذى يبني نفسه من خلال تغييرها، ويبني المجتمع من خلال تغييره، ويعبر الحاضر إلى المستقبل، ويعيد للأمة إشراقها وتأثيرها الإنسانى فى العالم، ولقد لاحظت أن محاضنتنا التربوية لم تؤد دورها بشكل جيد، فلربما مكث الشاب المسلم دهرًا يتقلب فى هذه المحاضن، دون أن يكتسب العلم الواجب ، والعمل الصالح ، والخلق القويم .. المطلوب لبناء شخصية الفرد المسلم .

وتساءلت عن السبب، وبحث وأدق ، أشهر الصيف فى أكثر السنوات أقضيها فى ربوع استانبول ، وكانت تتواجد ثلة من أهل العلم والفضل والنظر من أمثال شيخنا الجليل عبد الفتاح أبو غدة (رحمه الله)، وشيخنا الجليل محمد قطب، وأستاذنا الشيخ أحمد الكبيسي أستاذ الشريعة فى جامعة أم القرى فى مكة المكرمة، وشيخنا أمين سراج، وشيخنا مفسر القرآن الصابوني وغيرهم كثير ، كنت أطرح معهم تساؤلاتى ، وأسمع منهم ، وأحاورهم ، ولقد وافقني معظم هؤلاء أن هذا الموضوع التربوى لم يأخذ حظه من الدرس والكتابة .. وأن موضوعاته ماثورة فى ثنايا الكتب .. وأنها تحتاج إلى تجميع .

وإذا كنت أقل هؤلاء علما .. فإنى إنسان طموح أشعر بالراحة عندما أقتحم الصعاب كما ذكر الشاعر الكبير أبو تمام :

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب

بدأت بدراسة السيرة من كل المراجع التي وقعت تحت يدي، ودرست حياة الصحابة، وودقت في المواقف التي تلقوا فيها توجيهات النبي ﷺ فاستقامت معها فطرتهم، وحسنت أخلاقهم، وأصبحوا عظماء هداة مهديين .

وعندما اكتملت الصورة لدى ، كتبت ما توصلت إليه، لا أدري إذا كنت وفيتُ الموضوع حقه ، فهذا من حق القارئ أن يقوله .

وابتداءً أقول : إذا وُفقت لشيء مفيد فمن الله ثم من توجيهات إخواني ، وإذا أخطأت فلم يكن عن قصد مني ، ولا يفوتني أن أشكر من سددني بكلمة.. فقد أعطيت مسودة الكتاب للكثيرين واستمعت لأرائهم.

كما أشكر أخي الدكتور أمين القضاة الذي تكلف جهد تحرير أحاديث الكتاب ، فهو رجل اختصاص في هذا الموضوع .

والله أسأل أن ينفع الأمة وشبابها بهذا الكتاب ، وأن ينفعني به كعمل صالح أتقرب به إلى الله .

حسبي أني حاولت وما التوفيق إلا من عند الله، والحمد لله رب العالمين .

المؤلف

الكويت في

١٣ / ٣ / ١٤٢٣ هـ

٢٥ / ٥ / ٢٠٠٢ م

دور التربية في تشكيل السلوك

من نافلة القول أن نتحدث عن أهمية التربية . فلا يمارى أحد في أن التربية موضوع عظيم الشأن بالغ الأثر، وأنها أساس كل تقدم وإصلاح ، وعنوان كل تغيير ونهضة، والطريق الموصل إلى تهذيب النفوس وتثقيف العقول وبناء الأمم .

والمنهج التربوي الإسلامي هو الذي أوجد هذه الأمة : انتفضت من تراب الأرض فوصلت إلى علياء السماء، فإذا هي أمة صلبة متماسكة لا مثيل لها، تفتح وتعمق وتبني وتقيم مثلاً أخلاقية وإنسانية غير معهودة، وتنتشر في سنوات قليلة في رقاع الأرض، تنشر النور والهدى والصلاح .

ومرت الأمة المسلمة خلال مسيرتها الطويلة، بفترات قوة ومراحل ضعف.. وهي في كل مرة كانت تنتفض فيها نحو العلاء ، فكانت تأخذ بأسباب التربية السليمة التي تحول الأمة إلى قدرة عطاء متميز وتعيد الأمور إلى نصابها.

• وللتربية الإسلامية دور رئيس في تطبيق النظام الإسلامي ، فلن يكتب النجاح لمثل هذا النظام ما لم يعد له الجيل الذي سيطبقه . فليس من المعقول أن يطبق الأفراد النظام المفروض عليهم، إن لم يؤمنوا به ويعتقدوا فيه عن اقتناع وبصيرة. ومن هنا ندرك سر التربية الإسلامية التي بدأها الرسول ﷺ بتكوين العقيدة قبل نزول الأحكام الشرعية التفصيلية.

وفي ضوء هذه الحكمة التربوية كون الرسول ﷺ رجالاً عظاماً تكونت منهم أمة قوية استطاعت أن تطبق النظام الإسلامي بأنصع وجوهه. قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَبَّعُوا رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزِعٍ أُخْرِجَ شَطَنُهُ فَفَازَرَهُ فَأَسْتَغْلَظَ

فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۚ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١﴾

✽ وعليه فكل نهضة إسلامية أو نظام إسلامي أو نصر مؤزر في معركة.. يحتاج إلى جيل مسلم أعد إعدادا تربويا خاصا، على المبادئ ذاتها التي قررها رب العزة وبينها كتابه الكريم.. وطبقها رسوله الأمين ﷺ.. وتعلمها بالتوجيه والقدوة الجيل الإسلامي الأول.. الذي مثله وعبر عنه بكلمات بليغة الصحابي الجليل ربعي بن عامر ؓ.. حين سأله رستم قائد الفرس: ماذا جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ولن تكون صحوة ، ولن يكون نصر ، ولن تكون دولة مسلمة ، بدون جيل تربى على مبادئ الإسلام يقوم بذلك.

✽ لقد سبق النصر العسكري الذي حققه القائد المظفر صلاح الدين الأيوبي على القوى الصليبية الغازية ، نصر تربوي أنشأه العالمان الجليلان أبو حامد الغزالي وعبد القادر الجيلاني ، فأنمر جيلا عظيما أفرز قيادة عظيمة حققت النصر المؤزر .

✽ ويوم كان الجيش العثماني يحاصر فيينا كان في أوج عظيمته العسكرية، وكانت الأمة في أدنى درجاتها تربويا، فانهمزم الجيش وبدأت الدولة العثمانية تستعير مبادئ أوروبا الأخلاقية والتربوية على حساب أصالتها ومبادئها فكانت بداية نهايتها.

✽ الحركة الإسلامية الحديثة التي قامت في أصقاع عديدة من العالم الإسلامي: في مصر على يد الرجل الرباني حسن البناء، وفي شبه القارة الهندية على يد الرجل الرباني أبو الأعلى المودودي ، وفي تركيا على يد الرجل العظيم نجم الدين أربكان ، وفي أماكن أخرى على أيدي علماء أجلاء ، استطاعت عن طريق التربية الإسلامية

أن تعيد للمسلم ثقته بدينه وبنفسه، بعد أن حاولت قوى الغزو الغربي أن تحطم هذه الثقة، وأن تعبّده لدين جديد خلاصة تعاليمه: أن الدين علاقة خاصة تهم الفرد وحده، أما سبيل التقدم ففي اتباع طريق الغرب العلماني الذي لم يستطع أن يتصر في معركة الحياة إلا عندما انتصر في معركته مع الدين.

وتكالتبت قوى الغرب المعتدية على القوى الإسلامية الحية في الأمة تكيل لها الضربات مباشرة أو بواسطة الحكام الذين أصبحوا جزءا من الفكر والأداء الغربي، واستطاعت هذه القوى إلى حد ما أن تسدد ضربات مؤلمة لهذه الحركات، وأن تشوه مصطلحاتها الحركية، فأصبح الجهاد نوعا من الإرهاب، وأصبح الحكم الإسلامي رجعية لا تليق بالإنسان المتحضر.

نادت في البداية بالديمقراطية حتى إذ تأكدت أن الحركة الإسلامية هي التي تكسب في هذه المعركة تراجع عنها، وأغمضت عينها عن إرهاب الحكام وديكتاتوريتهم وتعسفهم ما داموا يؤدون خدمة للقوى الغربية بحربهم للحركة الإسلامية.

✽ بعد نظرية صامويل هنتغتون حول صراع الحضارات وتبني اللوبي اليهودي لهذه النظرية.. وتحريكه مؤسسات الغرب الحاكمة في هذا الاتجاه، أصبح الإسلام كدين مستهدفا، والمسلمون - وفي طليعتهم - الحركات الإسلامية هم العدو الذي تحاول قوى الغرب القضاء عليه، عندما سئلت السيدة تانشر رئيسة وزراء بريطانيا عن أهمية بقاء الحلف الأطلنطي بعد انهيار حلف وارسو، قالت بكل وضوح: إن الخطر الإسلامي الذي يفوق بمراحل الخطر الشيوعي، ما زال قائما، الأمر الذي يستدعي بقاء الحلف الأطلنطي.

والخطر الإسلامي الذي يشيرون إليه ليس هو البشر الذين يسكنون في منطقة معينة من الأرض، إنما هو الإسلام المتمثل في التربية الإسلامية التي تعطي المسلم قدراته المتميزة وتحوله من عامل خمول إلى حركة، ومن عامل استكانة إلى عطاء، ومن دائرة ردود الفعل إلى الفعل المنهجي القائم على الأساس الأخلاقي والإنساني المتميز.

من هذا المنطلق أعمد الغرب سيفه الذي طالما أعمله في رقاب ودماء المسلمين، وبدأ
يسل سيفاً من نوع جديد .

فما هو هذا السيف الجديد؟

* ذكر المبشر صاموئيل زويمر في كتابه (العالم الإسلامي اليوم) : إنه لم يسبق وجود
عقيدة مبنية على التوحيد أعظم من عقيدة الدين الإسلامي الذي انتحم قارتى
آسيا وإفريقيا الواسعتين وبث في مئات الملايين من البشر عقائده وشرائعه،
وأحكم ارتباطهم باللغة العربية فأصبحوا كسلصة جبال تناطح السحاب .

* أما المستشرق الإنكليزي (جيب) فيقول في كتابه (أين يسير الإسلام) : إن مشكلة
الإسلام بالقياس إلى الأوروبيين هي ما لهذا الدين من السيطرة على المسلمين في
كل تصرفاتهم ، ما يجعل لهم مكاناً بارزاً في أي تخطيط لاتجاهات العالم
الإسلامي^(١).

* ويزيد وليم جيفورد الأمر وضوحاً، فيقول: متى توارى القرآن ومكة عن بلاد
العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل حضارتنا التي لم تبعده عنها
إلا تعاليم محمد وكتابه^(٢) .

إنه سيف: التعليم والتطبيب والتمريض، والتسلل الخفي إلى ميدان الصحافة
والإعلام، والفتن والحروب، والدعوات الإقليمية . والتي يمكن جمعها كلها في
كلمة واحدة هي: محاربة الإسلام ومنهجه التربوي .

ولكن هل أفلح الغرب في ذلك؟

يقول زويمر^(٣) : التعليم المدرسي والتربية الأخلاقية الغربية قد أسفرا عن نتائج جمة،
وأثمرات ثمرات نافعة في الأطفال والمراهقين المسلمين على السواء.

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : محمد محمد حسين.

(٢) الغارة على العالم الإسلامي أ. ل. شاتليه ، ترجمة : مساعد الياقي ومحب الدين الخطيب .

(٣) مهد الإسلام: زويمر.

ويقول كرومر: لو أمكن تطوير الأزهر لكانت هذه خطوة جليلة الخطر، فليس من اليسير أن نتصور أي تقدم لنا طالما ظل الأزهر متمسكا بأساليبه التربوية.

ومن أجل هذه الغاية عمد فأخرج القسيس دنلوب من مجاله الكهنوتي وأقامه مستشارا لمعارف مصر^(١).

واستطاع دنلوب أن يحقق الأهداف التي تحدث عنها كرومر، فقال: لقد استطاع النشاط التعليمي والثقافي عن طريق المدارس والصحافة أن يترك في المسلمين - ولو عن غير وعي منهم - أثرا جعلهم يبدون لا دينيين إلى حد بعيد.

وأخيرا، شمعون بيريز^(٢) - مهندس اتفاقات أوسلو التي قرّطت في حقوق المسلمين في فلسطين - يطالب بإدراج موضوع التربية والتعليم في كل مؤتمر يعالج قضية الشرق الأوسط وإن على الدول العربية إذا أرادت السلام مع إسرائيل أن تحذف من تاريخها وبرامجها كل شيء عن حطين وعن صلاح الدين الذي أصبح رمزا للإباء الإسلامي وقائدا لا يقبل الجور الذي يلحق بأمنه.

وعلى النسق نفسه يسير إفرايم أنبار - مدير مركز ييجن - السادات للدراسات الاستراتيجية - ويطالب أوروبا بحملة تعليمية مركزة في العالم العربي على مدار سنوات عدة. تجند من أجلها مؤسساتها الدينية والتعليمية والسياسية والإعلامية كافة لتعليم العرب وترهيف أحاسيسهم العرب بالنسبة إلى الهولوكست، وأن هذا هو الدور الوحيد الأخلاقي المتاح لأوروبا للقيام به في المنطقة.

هكذا يريدون القضاء على ذاكرتنا، وعلى إسلامنا، وعلى الطلائع الحية في أمتنا، وعلى المنهج التربوي الذي أنشأ نهضتنا، والذي لجأت إليه الأمة كلها أرادت النهوض. ونحن نستبعد أن يفلح هؤلاء في خططهم. ما دامت طليعة التغيير:

* معتصمة بدينها.

(١) أصول التربية والتعليم: د. علي عبد الواحد وافي.

(٢) الصحف العربية ٥/٢/٢٠٠٠م.

* واعيية لدورها.

* ألزمت نفسها السلوك الإسلامي القويم، والدعوة الربانية الإنسانية الأخلاقية، تبشر بها وتضحى من أجلها بالوقت والمال والنفس.

* راجعت مسيرتها، وتدبرت عوامل الضعف فيها، وأخذت بأسباب العلم والوعي والتقدم والنماء، وواجهت المكر الغربي بمكر أقوى وصوت أوضح، فما عادت سياسة إغلاق الأبواب، وسدّ العيون والأذان، والسلبية في مواجهة التحديات تجدي نفعا.

* وأن تكون حركتها بناء، وبنائها على أساس متين، ولن يكون ذلك إلا بالعودة الحقة إلى منهج التربية الإسلامية.. الذي أنشأ الأمة، والذي يستطيع في كل لحظة أن ينهض بها.